# القلب المسكين
## ـ ٦ ـ

أمَّا صاحب القلب المسكين ؛ فقام ليخرجَ ، وقد تفارَطته الهموم ، وتسابقت إليه ، فانكسر ، وتفتَّر ؛ وكأنَّما هو قد فارق صاحبته باكياً ، وباكيةً من حيث لا يَرى بكاءَه غيرُها ، ولا يرى بكاءَها غيرُه ! .

ورأيته ينظر إلى ما حوله كأنَّما تغشَّى الدُّنيا لون نفسه الحزينة ؛ إذ كانت نفسه ألقَتْ ظِلَّها على كلِّ شيءٍ يراه ؛ وجعل يدلف[(١)] ولا يمشي ، كأنَّه مُثقلٌ بحملٍ يحمله على قلبه .

إنَّه ليس أخفَّ وزناً من الدَّمع ، ولكنَّ النُّفوس المتألِّمة لا تحمل أثقل منه ، حتَّى لينتثر على النَّفس أحياناً ، وكأنَّه وكأنَّها بناءٌ قائمٌ يتهدَّم على جسمٍ ، وبعض التَّنهُّدات على رِقَّتها وخفَّتها قد تشعر بها النَّفس في بعض همِّها كأنَّها جبلٌ من الأحزان أخذته الرَّجفة ، فمادت به ، فتقلقل ، فهو يتفلَّق ، ويتهاوَى عليها .

آه . . . حين يتغيَّر القلب ، فيتغيَّر كلُّ شيءٍ في رأي العين ! لقد كان صاحبنا منذ قليلٍ وكأنَّ كلَّ سرورٍ في الدُّنيا يقول له : أنا لك ! فعاد الآن وما يقول له : « أنا لك » إلا الهمُّ ، والتقَى هو ، والظَّلام ، والعالم الصَّامت ! .

جعل يدلف ، ولا يمشي كأنَّه مثقلٌ بحملٍ يحمله على قلبه ؛ ومتى وقع للطَّائر من الجوِّ مكسورَ الجناح ، انقلبت النَّواميس كلُّها معطَّلةً فيه ، وظهر الجوُّ نفسُه مكسوراً في عين الطَّائر المسكين ؛ وتنفصل روحُه عن السَّماء ، وأنوارها ، حتى لو غمره النُّورُ وهو ملقىً في التراب ؛ لأحسَّه على التُّراب وحده ، لا على جسمه .

ثمَّ خرجنا ، فانتبه صاحبنا ممَّا كان فيه ؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان فيه على وجهٍ آخر ، فتعذَّب به عذابين : أمَّا واحدٌ ؛ فلأنَّه كان ، ولم يَدُمْ ، وأمَّا الآخر ؛ فلأنَّه زال ، ولم يعد ؛ والسُّرور في الحبِّ شيءٌ غير السُّرور الَّذي يعرفه

(١) « يدلف » : دَلَف : مشى مقارب الخطو كالمقيَّد .

النَّاس ؛ إذ هو في الأوَّل روحٌ تتضاعف به الرُّوح ؛ فكلُّ ما سرَّك وانتهى شعرتَ : أنَّه انتهى ، ولكن ما ينتهي من سرور العاشق المستهام يُشعره : أنَّه مات ، فله في نفسه حزن الموت ، وهمُّ الثُّكْل[١] ، وله في نفسه همُّ الثُّكْل ، وحزن الموت ! .

* * *

وينظر صاحب القلب المسكين ، فإذا الأنوار قد انطفأت في الحديقة ، وإذا القمر أيضاً كأنَّما كان فيه مسرحٌ ، وأخذوا يطفئون أنواره .

كان وجه القمر في مثل حزن وجهِ العاشق المبتعد عن حبيبته إلى أطراف الدُّنيا ، فكان أبيض أصفرَ مُكمداً[٢] ، ويتخايل فيه معاني الدُّموع الَّتي يُمسكها التجلُّد أن تتساقط .

كان في وجه القمر وفي وجه صاحبنا معاً مظهر تأثير القدَر المفاجىء بالنَّكبة .

وبدت لنا الحياة تحت الظُّلمة مقفرةً خاويةً على أطلالها ، فارغةً كفراغ نصف اللَّيل من كلِّ ما كان مُشرقاً في نصف النَّهار ؛ يا لك من ساحر أيُّها الحبُّ ! إذ تجعل في ليل العاشق ونهاره ظلاماً وضوءاً ليسا في الأيام والليالي ! .

أمَّا الحديقة ؛ فلبسها معنى الفراق ، وما أسرع ما ظهرت كأنَّما يبست كلُّها لتوِّها ، وساعتها ، وأنكرها النَّسيم ، فهرب منها فهي ساكنةٌ . وتحوَّلت روحها خشبيةً جافَّةً ، فلا نَضْرة فيها على النَّفس ، وبدت أشجارها في الظَّلام قائمةً في سوادها كالنَّائحات يلطمن ، ويُولولن ، وتنكَّر مشهدُ الطَّبيعة كما يقع دائماً حين تنبتُّ الصِّلة بين المكان ونفس الكائن .

ماذا حدث ؟

لا شيء إلا ما حدث في النَّفس ، فقد تغيَّرت طريقة الفهم ، وكان للحديقة معنىً من نفسه ، فسُلب المعنى ، وكان لها فيضٌ من قلبه ، فانحبس عنها الفيض ، وبهذا وهذا بدت في السَّلب ، والعدم ، والتنكُّر ، فلم يبقَ إبداعٌ في شيءٍ مُبدعٍ ولا جمالٍ في منظرٍ جميلٍ .

---

(١) « الثكل » : فِقْدان الحبيب ، أو الحميم .
(٢) « مكمداً » : الكمد : الحزن المكتوم .

أهكذا يفعل الحبُّ حين يضع في النَّفس العاشقة معنىً ضئيلاً من معاني الفناء كهذا الفراق ؟! .

أكذا يترك الرُّوحَ إذا فقدت شيئاً محبوباً ، تتوهَّم كأنَّها ماتت بمقدار هذا الشَّيء ؟! .

مسكينٌ أنت أيُّها القلب العاشق ! مسكينٌ أنت ! .

* * *

ومضينا فملنا إلى نديٍّ نجلس فيه ، وأردت معابثة صاحبنا المتألِّم بالحبِّ ، والمتألِّم بأنَّه متألِّم ، فقلت له : ما أراك إلا كأنَّك تزوَّجتها ، وطلقتَها فتبعتْها نفسُك ! .

قال : آه ! مَنْ أنا الآن ؟ وما بال ذلك الخيال الذي نسَّق لي الدُّنيا في أجمل أشكالها ، قد عاد فبعثرها ؟ أتدري : أنَّ العالم كان فيَّ ثمَّ أخذ منِّي ، فأنا الآن فضاءٌ فضاءٌ ؟ .

قلت : أعرف أنَّ كلَّ حبيبٍ هو العامل الشَّخصيُّ لمحبِّه .

قال : ولذلك يعيش المحبُّ المهجور ، أو المفارق ، أو المنتظر ، وكأنَّه أيَّامٌ خلت ، وتراه كأنَّما يجيء إلى الدُّنيا كلَّ يومٍ ، ويرجع .

قلت : إنَّ من بعض ما يكون به الجمال جمالاً : أنَّه ظالمٌ قاهرٌ عنيفٌ ، كالملك يستبدُّ ليتحقَّق من نفاذ أمره ؛ وكأنَّ الجميل لا يتمُّ جماله إلا إذا كان أحياناً غير جميلٍ في المعاملة ! .

قال : ولكنَّ الأمر مع هذه الحبيبة بالخلاف ؛ فهي تطلبني ، وأتنكَّبُها[1] ، وهي مقبلةٌ لكنَّها مقبلةٌ على امتناعي ؛ وكأنَّها طالبٌ يعدو وراء مطلوبٍ يفرُّ ، فلا هذا يقف ، ولا ذلك يدرك .

قلت : فإنَّ هذه هي المشكلة ، ومتى كانت الحبيبة مثلها ، وكان المحبُّ مثلك ، فقد جاءت العقدة بينهما معقودةً من تلقاء نفسها ، فلا حلَّ لها .

قال : كذلك هو ، فعل تعرف في البؤس ، والهمِّ كبؤس العاشق الذي لا يتدبَّر

(١) « أتنكبها » : تنكَّب عنه : عدل ، وتنحَّى .

كيف يأخذ حبيبتَه ، ولكن كيف يتركُها ؟ ما هي المسافة بيني وبينها ؟ خطوة ، خطوتان ؟ كلا ، كلا ؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدُّنيا كلَّها ، إنَّ مسافة ما بين الحلال والحرام متراخيةٌ ممتَدَّةٌ ذاهبةٌ إلى غير نهاية ؛ وإذا كان الحبُّ الفاسدُ لا يقبل من الحبيب إلا ( نعم ) بلا شرطٍ ولا قيدٍ ؛ لأنَّه فاسدٌ ، فالحبُّ الطَّاهر يقبل ( لا ) لأنَّه طاهرٌ ؛ ثمَّ هو لا يرضى ( نعم ) إلا بشرطها وقيدها من الأدب ، والشَّريعة ، وكرامة الإنسانيَّة في المرأة والرَّجل .

**وإذا لم ينته الحبُّ بالإثم ، والرَّذيلة ؛ فقد أثبت : أنَّه حبٌّ ؛ وشرفُه حينئذٍ هو سرُّ قوَّته ، وعنصر دوامه .**

أتعرف أنَّ بعض عشَّاق العربَ تمنَّى لو كان جملاً ، وكانت حبيبته ناقة . . إنَّه بهذا يودُّ ألا يكون بينهما العقل ، والقانون ، وهذا الحرمان الذي يسمَّى الشَّرف ، وألا يكون بينهما إلا قيدُ غريزتها ؛ الَّذي ينحلُّ من تلقاء نفسه في لحظةٍ ما ، وأن يُترك لقوَّته وتترك هي لضعفها ؛ والقوَّة والضَّعف في قانون الطَّبيعة هما ملكٌ وتمليكٌ ، واغتصابٌ وتسليمٌ .

قلت : وهذا ما يفعله كلُّ عاشقٍ لمثل هذه الرَّاقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان : فإنَّ بينهما قوَّة ، وضعفاً من نوعٍ آخر ، فمعه الثَّمن ، وبها الحاجة ، وهما في قانون الضَّرورة ملكٌ وتمليكٌ .

قال : وهذا ممَّا يقطِّع في قلبي ، فلو أنَّ للأمَّة ديناً ، وشرفاً ؛ لما بقي موضع الزَّوجة فارغاً من رجلٍ ، وإنَّ هذه وأمثالها إنَّما ينزلن في تلك المواضع الخالية أوَّل ما ينزلن ، فكلُّ بغيٍّ هي في المعنى دينٌ متروكٌ ، وشرفٌ مبتذلٌ في الأمَّة .

* * *

قلت : فحدِّثني عنك ما هذا الوَجْد بها ؟ وما هذا الاحتراق فيها ؟ وأنت قد كنت بين يديها خياليّاً محضاً ، كأنَّما جمعتها في حراسك ، فأخذتها ، وتركتها في وقتٍ معاً ، وحواسُّك هذه لا تزال كما هي ، بل هي قد زادت حدَّةً ، فكما صنعتْ لك من قربٍ تصنع لك من بُعدٍ .

قال : أنا في محضرها أحبُّها كما رأيتَ بالقدر الذي تقول هي فيه : إنَّك لا تحبُّني ؛ إذ كان بيننا آخرُ اسمه : الخلُق ، ولكنِّي في غيابها أفقد هذا الميزان

الذي يزن المقدار ، ويحدِّده ، وإذا كنتَ لم تعلم كيف يصنع العاشق في غيبة المعشوق ؛ فاعلم : أنَّ كبرياءه حينئذٍ لا ترى بإزائها ما تقاومه ، فتتخلَّى عنه ، وتخذله ، وفضيلته لا تجد ما تستعْلن فيه ، فتتوارى ، وتدعه ، وشخصيَّته لا تجد ما تبرز له ، فتختفي وتهمله ، فما يكون من كلِّ ذلك إلا أن يظهر المسكين وحدَه بكلِّ ما فيه من الوَهن ، والنَّقص ، وحدَّة الشَّوق ، وهنا ينتقم الحبُّ ممَّا زوَّرتْ عليه الكبرياء ، والفضيلة ، والشَّخصيَّة ، فيضرب ، بحقائقه ضرباتٍ مؤلمةٍ لا تقوم لها القوَّة ، ويجعل غياب الحبيب كأنَّه حضوره مستخفياً لرؤية الحقيقة ؛ التي كتمت عنه ، وكم من عاشقةٍ متكبِّرةٍ على مَنْ تهواه تصدُّه ، وتباعده ، وهي في خلوتها ساجدةٌ على أقدام خياله تمرِّغ وجهها هنا وهنا على هذه القدَم ، على هذه القدَم !

ألا إنَّه لا بُدَّ في الحبِّ من تمثيل رواية الامتناع ، أو الصَّدِّ ، أو التَّهاون ، أو أيِّ الرِّوايات من مثلها ، ولكن ثياب المسرح هي دائماً ثياب استعارةٍ ما دام لابسها في دوره من القصَّة .

* * *

ثمَّ وضع المسكين يده على قلبه ، وقال : آه ! إنَّ هذا القلب يغاضب الحياة كلَّها متى أراد أن يشعر صاحبه : أنَّه غضبان .

مَنْ مِن النَّاس لا يعرف أحزانه ؟ ولكن من منهم الذي يعرف أسرار أحزانه ، وحكمتها ؟ أما إنَّه لو كشف السِّرَّ لرأينا الأفراح والأحزان عملاً في النفس من أعمال تنازع البقاء ، فهذا النَّاموس يعمل في إيجاد الأصلح ، والأقوى ، ثمَّ يعمل كذلك لإيجاد الأفضل ، والأرقِّ ، ومن ثمَّ كانت آلام الحبِّ قوية قويَّةً ؛ حتَّى لكأنها في الرَّجل والمرأة تهيِّئ أحد القلبين ليسحق القلب الآخر .

آه من هذه اللَّواعج[1] ! إنها ما تكاد تضطرم حتَّى توجع النَّفس وكأنَّها موقد يشتعل بالجمر ، وبذلك يُصهرُ المعدن الإنسانيُّ ، ويُصنع صنعةً جديدةً ، وإلى أن ينصهر ، ويتصفَّى ، ويصنع ، ماذا يكون للإنسان في كلِّ شيءٍ من حبيبه ؟

يكون له في كلِّ شيءٍ روحه النَّاريُّ .

---

(١) « اللواعج » : اللاعج : الهوى المحرق ، والجمع : لواعج .

قلت : بَخٍ بَخٍ[1] ! هكذا فليكن الحبُّ ؛ إنَّها حين تهيج في نفسك الحنين إليها تعطيك ما هو أجمل من جمالها ، وما هو أبدع من جسمها ؛ إذ تعطيك أقوى الشِّعر ، وأحسن الحكمة .

قال : وأقوى الألم ، وأشدَّ اللَّوعة ، يا عجباً ! كأنَّ الحياةَ لا تقدِّم في عشق المحبوب إلا عشقها هي ؛ فإذا وقعت الجفوة ، حُمَّ البيْنُ ، أو اعترى اليأس ؛ قدَّم الموت نفسه ، فكلُّ ذلك شبه الموت .

إنَّ الحزن الذي يجيء من قِبل العدوِّ يجيء معه بقوَّة تحمله ، وتتجلَّد له ، وتكابر فيه ؛ ولكن أين ذلك في حزنٍ مبعثُه الحبيب ؟ ومن أين القوَّة إذا ضعف القلبُ ؟!

* * *

قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً ؛ فإذا كان غدٌ ، وانسلخ النَّهار من اللَّيل ؛ جئنا إليها ، فرأيناها في المسرح ، ولعلَّ الأمر يصدر مصدراً آخر ، قال : أرجو . . .

ولم يكد ينطق بهذه الرَّجيَّة حَتى مرَّ بنا سبعة رجالٍ يقهقهون ، ثمَّ تلاقينا ، وجئنا ، ويا ويلتنا على المسكين حين علم أنَّها رحلت ؛ لقد أدرك : أنَّ الشَّيطان كان يضحك بسبعة أفواهٍ . . . من قوله : أرجو .

ولماذا رحلت ؟ لماذا ؟

وأمَّا هو . . . !!

* * *

(١) كلمة الإعجاب ؛ تقال عند الرِّضا والمدح ، ومثلها ( زه ) وهذه فارسية . ( ع ) .